أثر اللغة العربية في نشر الثقافة الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

The impact of the Arabic language on spreading Islamic culture in the Islamic Maghreb during the Middle Ages

بن ميـرة بن سعيد[1]*

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

Benmirasaid02@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/05/11 ـ تاريخ القبول: 2022/06/13 ـ تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

إنّ مسالة إنتشار اللغة العربية تحققت نتيجة مجموعة من المعطيات ،وأهمها هو إقتناع البربر بتلك العلاقة القدسية بين اللغة العربية والدين الإسلامي ،كون أن هذا الأخير لايمكن فهمه إلا بتعلم لغته ، وهكذا عرفت اللغة طريقها الى قلوب سكان بلاد المغرب ،ومع مرور السنوات أنشأ جيل من سكان بلاد المغرب تشبع بمعالم اللغة العربية وذاق حلاوتها ووصلوا درجة الإبداع، و أصبح لا يمكن بأي حال من الأحوال تصور ثقافة مغربية محلية بعيدة عن الأسس الثقافية العربية الاسلامية ،ومن أجل هذا سلك الفاتحون عدة طرق لنشر الثقافة الإسلامية من خلال تعليم اللغة العربية وتعاليم الدين ،وذلك من خلال الأربطة التي كانت منتشرة على ثغور بلاد المغرب أو عن طريق المساجد والكتاتيب التي كانت مرافقة للفتوحات الإسلامية ،وبهذا فإن الفتح الإسلامي لبلاد المغرب قد أسس لميلاد ثقافة إسلامية جديدة إنتشرت مع انتشار لغة القران الكريم ولغة الفاتحين.

كلمات مفتاحية: اللغة العربية، الثقافة الإسلامية، القرآن الكريم، الفتح الإسلامي، بلاد المغرب، الهجرات العربية

* **المرسل: بن ميرة بن سعيد**

Abstract:

The issue of the spread of the Arabiclanguagewasachieved as a result of a set of data, the most important of whichis the Berbers' conviction of thatsacredrelationshipbetween the Arabiclanguage and the Islamic religion, since the latter canonlybeunderstood by learningitslanguage. The inhabitants of the countries of the Maghreb weresaturatedwith the features of the Arabiclanguage and tasteditssweetness and reached the degree of creativity, and itbecame in no way possible to imagine a local Moroccan culture far from the ArabIslamic cultural foundations, and for this the conquerorstookseveralways to spreadIslamic culture throughteaching the Arabiclanguage and the teachings of religion, And thatisthrough the tiesthatwerespread on the frontiers of the Maghreb or throughmosques and books thataccompanied the Islamicconquests. Thus, the Islamicconquest of the Maghreb has established the birth of a new Islamic culture thatspreadwith the spread of the language of the Noble Qur'an and the language of the conquerors.

Keywords: Arabiclanguage;Islamic culture ; the Noble Qur'an;Islamicconquest;Maghreb countries ;Arab migrations

1 ـ مقدمة:

قد يربط الكثير مسألة قدوم اللغة العربية إلى بلاد المغرب الإسلامي بدخول الإسلام متجاهلين أن التاريخ يحمل العديد من الشواهد على بلدان أسلمت وبقي لسانها غير عربي وهناك بلدان أسلمت وبعدها تعربت.

لكن يبقى في المجمل أن الحال في بلاد المغرب تميز بظهور الثقافة العربية الإسلامية في وقت مبكر من الفتح الإسلامي وكان لهذا مايبرره بإعتبار أن قاد الفتح في بدايته كانوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من أمثال عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وابن ابي السرح وغيرهم، وكان من بينهم كتاب الوحي وحفظة القران الكريم والرواة عن الرسول صلى الله عليه وسلم(التليسي، دت، صفحة 60)،وقد ذكرهم المالكي وعددهم يتسعة وعشرين صحابيا(المالكي، 1995) مما أعطى الفتح الإسلامي زخم

ثقافي إسلامي كبير بلسان عربي، وحدث أن اصطدم هذا بموروث ثقافي سبقه على غرار ماتركه البيزنطيين عندما اختلطوا بسكان بلاد المغرب، فكانت انتصارات الفتح الإسلامي اذاناً ببناء أول مؤسسة ثقافية افريقية(المالكي، صفحة 67) ،ومن ثم فتح الباب لأن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم وبدأت لغة التنزيل تأخذ طريقها إلى عقول المغاربة كونها هي اللغة التي يفهم من خلالها أصول الدين وفروعه وأحكامه وتعاليمه(كنون، دت، صفحة 41)

2 - ثنائية اللغة العربية والبربر

إن إنتشار اللغة العربية ببلاد المغرب كان بالموازاة مع إنتشار تعاليم الدين الإسلامي وكان هذا من الوهلة الأولى من الفتح الإسلامي وتحديدا منذ القرن الأول الهجري وأقبل البربر على تعلم اللغة العربية وفي الوقت نفسه اقبالهم على حفظ القران الكريم وذلك للتمكن من كتابته وبالتدرج استقرت اللغة العربية في مدوناتهم وثقافتهم، وبلغت اللغة العربية عبر مرور القرون إزهاراً عكس سمو قدرتها على تبليغ الإسلام في أفضل أشكاله.

وقد زاد توهج اللغة العربية في مرحلة ثانية خلال القرون المتأخرة من العصر الوسيط وبالتحديد في عهد الهجرات الهلالية

والجدير بالذكر أن هذه التحولات التي كانت تربط بين تطور اللغة العربية في إنتشارها ومسألة تقبل البربر لها قد مرت بعديد المعطيات جعلت منها لغة سائدة ورائدة في أوساط البربر أهمها أن العرب وجدوا البربر غير مستقرين على لغة واحدة، وأن ماكان سائدا ماهو إلا لهجات إنحصر استقرارها على نطاق ضيق بالمناطق الجبلية أو كإستخدام داخل الأسر البربرية(سعد، دت، صفحة 118)، هذا مادفع بالعرب الى إتخاذ عديد الإجراءات من أجل بعث اللغة العربية وإحياء الثقافة الإسلامية من خلال إشتراط التعبد باللغة العربية مما دفع بالبربر على غرار شعوب العالم بأن تقرأ أدعيتها وتحفظ السور القرانية للصلاة بلسان عربي(النعمان، 1998، الصفحات 42-45)

كما لم يهمل العرب الجانب التعليمي وقاموا بإقامة كتاتيب بجوار المساجد من أجل تفعيل دورها في تحفيظ القران فضلا عن تعليم اللغة العربية وقواعدها فتأصلت اللغة في قلوب وعقول البربر وقرينة ذلك أن ماإن يفتح العرب منطقة وتتقلص منها البربرية لا تعود اليها أبدا.

وهكذا أتقن البربر اللغة العربية، وأصبحت لغة خطاب بالنسبة لهم وخير دليل على ذلك تلك الخطبة الشهيرة التي ألقاها طارق بن زياد البربري باللغة العربية على جيشه الذي كان متكون من فحول الجند البربري عند مدخل الأندلس ،وجعل العربية عاملا محفزا للجند ،وبالمقابل كان تقبل كبير للجند لهذه اللغة(ربوح، 2013، صفحة 61)، وكان واضحاً أن إحتكاك العرب بالبربر وتعايشهم معهم قد افرز صبغة بلاد المغرب باللغة العربية(بوسعد، 2002، صفحة 33)

3 دور الهجرات العربية في التعريب ونشر الثقافة الإسلامية ببلاد المغرب

بما أن إنتشار اللغة العربية في إطارها العام يعتبر نتاجاً ذو بعد زمني أفرزته أحداثاً تاريخية ضاربة في التاريخ، فإننا سنحاول من جانبنا أن نتتبع ونتقصى المراحل الأولى التي مر بها والأشواط التي قطعها لوضعها في السياق التاريخي العام الصحيح ومدى تأثير انتشارها في بعث الثقافة العربية الاسلامية

1.3. خلال مرحلة الفتح الاسلامي

تعتبر الهجرة العربية الى بلاد المغرب من أهم الهجرات التي عرفتها البشرية والتي كان لها أثر حضاري وقد رصدت بعض المصادر بعض الشذرات عن معرفة البربر للإسلام وللغة العربية قبل الفتح الاسلامي، ومن قرائن ذلك ماهو موجود في الكتب حول مايعرف برواية ركراكة أو أسطورة ركراكة(الشاوش، 2010، صفحة 4)، فضلا على إثبات ذلك بموقع يسمى "برباط شاكر" الذي إحتضن أول مسجد في المغرب الأقصى بأمر من عقبة بن نافع واستدلوا بأن لاوجود لمسجد دون مسلمين ، وكان هذا قبل مجيء عقبة بن نافع(شاكر، 2010، صفحة 69)،خاصة أن عقبة وازن بين حمله لرسالة الدين الاسلامي وحرصه على نشر اللغة العربية(اسماعيل، 1985، صفحة 38)

ومهما يكن فإن الثابت أن العرب قدموا الى بلاد المغرب على شكل موجات متوالية، وتعتبر الموجة المرافقة للفتح الإسلامي أولها وبفضلها تم إفراز واقع جديد ساد بلاد المغرب، تمثل في انتشار الإسلام وانتشار اللغة العربية(تويراس، 2015، صفحة 47)،وكان وقع الهجرة العربية إبان الفتح الإسلامي في قرنه الأول انتشار كبير للغة العربية خاصة في عهد الخلافة الأموية وتحديدا في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ،الذي أسس لعهد جديد في نشر الثقافة العربية ببلاد المغرب .

فبادر بإرسال ثلاثة عشر فقيه من كبار التابعين بهدف تعليم البربر القران الكريم وأصول الدين ونشر اللغة العربية في اقطار بلاد المغرب(اسماعيل، صفحة 38)، ويبدو أن عبد الملك بن مروان كان على دراية

تامة بأهمية اللغة العربية في نشر الثقافة الإسلامية بهدف كسب قلوب البربر وإحداث الليونة التّامة من أجل نشر الإسلام وتفادي الردّة المتكررة التي عرف بها البربر في بداية عهدهم بالإسلام.

فقام عبد الملك بن مروان بإرسال حسان بن النعمان على رأس جيش ضخم غلب عليه العنصر العربي عزز به بصورة كبيرة هجرة العرب إلى بلاد المغرب، ويبدو أن حسان بن النعمان أيضاً حاول بعث عهد جديد تم فيه إرساء معالم الإستقرار للغة العربية وثبات نشرها ونشر الثقافة الإسلامية العربية، ممأدى بالمؤرخين بتسميته بممهد الثقافة العربية ببلاد المغرب الاسلامي(المراكشي، 1980، صفحة 34)

وأبرز ما قام به حسان بن النعمان في عهده هو إنشاء الدواوين وألزم الجميع بتعريبها وجعل اللغة العربية هي لغة الدولة(الشاوش، صفحة 6)

ليأتي بعهده عهد موسى بن النصير الذي بعث بسبعة عشر من فقهاء وعلماء العرب وأمرهم أن يعلموا البرابرة اللغة العربية وأصول الدين في الجزأ الغربي لبلاد المغرب(المراكشي، صفحة 42)، ويبدو أن هذه السياسة أتت أكلها خاصة أنها انعكست ايجابا على انتشار الثقافة العربية الإسلامية، خاصة بعد عملية تشييد المساجد على نطاق واسع والتي كان لها دور بالغ الأهمية، كون أن المسجد أعتبر مركز علم وعبادة ووصل الأمر أن أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بضرب الدنانير بنقش رموز الإسلام وباللغة العربية(المراكشي، صفحة 34)، لتتميز هذه الفترة ببروز معالم حضارية واضحة المعالم عليها قامت الحضارة المغربية التي تفاعلت فيها عناصر عربية وبربرية، لكن ظلت الريادة فيها للثقافة العربية الإسلامية بفعل انعكاس الهجرة العربية الى بلاد المغرب، وبفضل اللغة العربية استفادت الثقافات السابقة التي عمرت قبل مجيء الفتح الإسلامي

وهكذا تم فتح المجال للغة العربية التي صارت لغة الإدارة والتأليف والكتابة والتعليم وحتى التخاطب اليومي(تويراس، الصفحات 70-71)

ورغم بلوغ اللغة العربية أو حتى الثقافة العربية الإسلامية بشكل عام لهذا المستوى من الإنتشار في هذه الفترة إلا أن حداثة عهد البربر بالإسلام وباللغة العربية الحادثة بالنسبة اليه ،جعل من هذه الفترة فترة تمهيدية لمرحلة قادمة، وأعطت الإنطباع بوجوب حدوث عوامل اخرى فضلا عن احتياج اللغة العربية لعامل الزمن من أجل الترسيخ الحقيقي لها

والجدير بالذكر هنا أن تأخر إنتشار اللغة العربية في بدايات الفتح الإسلامي يعود بالأساس الى سياسة الخلافة الاسلامية المنتهجة في الفتوحات الإسلامية والتي كانت مبنية على عدم المكوث بالمضارب

المفتوحة، وبالتالي تتجنب الإحتكاك المباشر الطويل بالبربر(تويراس، صفحة 55)، مفضلين التمركز بالقيروان كقاعدة إرتكاز لهم أو الأمصار التابعة للخلافة الإسلامية، كما اعتبرت بلاد المغرب الإسلامي دار هجرة(أبوالعرب، 1985، صفحة 35)،وهو مايدفعنا بالقول أن تاخر بروز الثقافة الإسلامية كان سببه المباشر ضعف تواجد العنصر العربي

فالفاتحون وجيشهم العربي كانوا يتمركزون في القيروان أو المغرب الأقصى في عهد الأدارسة وهم من كانوا النواة الأولى لنشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية ببلاد المغرب(تويراس، صفحة 64)،وكانت هناك عديد الأسباب التي جعلت من القيروان والمغرب الأقصى في عهد الأدارسة والأغالبة على الأقل نبراس للغة العربية والثقافة الإسلامية ذلك أن حالة الإستقرار ووجود العنصر العربي الغالب على الدولتين من جهة وليونة البربر في تقبل اللغة العربية كونها لغة الدين الإسلامي من جهة أخرى ، حمسهم دينياً للإرتباط بلغة القران الكريم بالإضافة إلى الحاجة الماسة لوجود تأسيس لكتابات عن العنصري البربري وتاريخه الإجتماعي والثقافي

والجدير بالذكر أن البربر لم يجدوا أحسن من اللغة العربية في ذلك ،خاصة وأن الحروف المسماة اليوم بتيفيناغ قد إندثرت قبل مجيء الإسلام لبلاد المغرب(أفا و المغراوي، 2007، صفحة 29)،فضلا عن ماأفرزته الهجرة المعاكسة للبربر من المشرق إلى المغرب بعدما ذهبوا إلى المشرق كطلبة علم أو للحج ،أو قد تم سبيهم خاصة في عهد ولاة بني أمية، ثم رجعوا لبلاد المغرب متشبعين بما نهلوه من علوم وتعلم للغة العربية والثقافة الإسلامية بالمشرق كما لايمكن إخفاء مسألة تأثر الأدارسة بما كان يجري بالقيروان من تعريب للإدارة والدواوين والكتابة المنقوشة على المسكوكات(حركات، دت، صفحة 103)، وفي عهدهم ظهرت عديد المؤشرات التي تبرز أثر اللغة العربية في التعريف بالثقافة الإسلامية وأهم قرينة على ذلك أن في عهدهم عرف الخط الكوفي انتشارا واسعاً بطابعه المشرقي، وقد ضربت النقود به تقليدا على مايبدو لما سبقها من النقود الأموية والعباسية كما انتشرت دور ضرب السكة على خمسة وعشرون دار ببلاد المغرب الإسلامي(أفا، 1993، صفحة 15) وهو ماأدى إلى ظهور نخبة مثقفة منهم الأدباء والعلماء(تويراس، صفحة 103) فضلا عن من سكنها من المحدثين والعابدين والزاهدين(المالكي، صفحة 13)

ولهذا نجد أن ابن عذاري قد عدّد هؤلاء المحدثين بثمانية عشرا عالما(المراكشي، صفحة 20) مما أكسب العامل الحضاري دورا بارزا وهذا على مايبدو ما أعطى للغة العربية صاحبة الموروث الحضاري التفوق على لغات لم تتشبع بموروث حضاري فتحتويها وتتفوق عليها وهو ماحصل للغة العربية و البربرية

2.3. خلال مرحلة مابعد الفتح الإسلامي

عرفت بلاد المغرب الاسلامي في المرحلة الثانية وهي المرحلة المكملة لمرحلة الفتح ظهور مايعرف في التاريخ المغاربي الوسيط بالطلائع العربية ، والتي تتمثل في الجيوش التي أرسلها بني أمية لإخماد الثورات في بلاد المغرب،ولم تلقى هذه الطالعة على مايبدو ترحيبا من عرب الفتح بسبب خوفهم من مشاركتهم لهم في الإمتيازات والأراضي(سواعدي و الحاج، 2004، صفحة 30)

أما الطالعة الأخرى فتكونت من زهاء العشرة الاف فارس ،وتحصنوا في سبتة ونالهم جهد عظيم ثم كان لهم الجواز للأندلس من أجل إخماد ثورة البربر هناك(سواعدي و الحاج، صفحة 31)

والملاحظ هنا أن العرب لم يكونوا بالكثرة مقارنة بقبائل البربر ،بل جاءوا على شكل حملات وطلائع فتح وجندا مقاتلين يمكن استنفارهم في حالة الحرب وكان اغلب استقرارهم بالحواضر الكبرى الإفريقية مثل برقة،القيروان ،بلزمة ،الأربس،وباجة

وهكذا فإن اللغة العربية والثقافة الإسلامية ككل واجهت عديد الصعوبات خلال القرنين الأولين للفتح الإسلامي مثل: قضية حركة الإرتداد التي عرفتها القبائل البربرية في أكثر من إثني عشر مرة ونحن نعلم جيدا مدى ارتباط اللغة العربية بالدين الإسلامي

كما أن بعد المسافة بين بلاد المغرب والمشرق أضعف فرص احتكاك العرب بالبربر وضيع فرصة تلامس الثقافة الإسلامية بالمجتمع البربري إلى جانب عوائق أخرى عطلت دخول المغرب إلى الحضارة الإسلامية في قرنها الأول على الاقل(الكتاني، دت، صفحة 18)

وفي المقابل فإن دور الولاة والقادة في بلاد المغرب بتبنيهم لسياسة حكيمة بإرسالهم للعلماء وأصحاب العلوم الشرعية ومعلمي اللغة العربية من ذوي الخبرة على رأس أغلب السرايا ،وأخذوا على عاتقهم مهمة نشر التعليم

لقد سار نهج تعليم اللغة العربية ببلاد المغرب ببطء لكن بخطوات ثابتة ،وكان تعليم اللغة العربية مرادفا لنشر الثقافة الإسلامية والتي كانت أيضا في بدايتها بسيطة شأنها شأن بلاد المشرق في أول عهدها، وهنا لابد من التأكيد على ذلك الدور البارز للصحابة والفاتحين بخصوص حرصهم على تعليم اللغة العربية إدراكاً منهم أنها السبيل الوحيد لنشر الثقافة الإسلامية ،وعن هؤلاء أخذ الأفارقة والمغاربة الذين دخلوا الإسلام أصول الدين والحديث الذي يعتبر المصدر الثاني بعد القران الكريم في استنباط وفهم احكام الدين

وتجدر الإشارة هنا إلى القول أن أهم حدث عرفته بلاد المغرب خلال العصر الوسيط و لعب دورا بارزا في نشر الثقافة الإسلامية ببلاد المغرب هو قدوم تلك البعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز(التليسي، صفحة 70)، والتي صنعت الفارق بين بلاد المغرب الإسلامي قبل مجيئها وبعده ،فشهدت البلاد رسوخا للثقافة الإسلامية وفتحت الكتاتيب والمساجد لتعليم القراءة والكتابة وتدريس اللغة وقواعدها (التليسي، صفحة 70)فأصبح للمغاربة علمائهم ومثقفيهم ومنهم محمد بن عبد النعم الصنهاجي السبتي الذي لم يستظهر أحد في زمانه مااستظهره(المنوني، 1988، صفحة 61)،ومن اللغويين الذين برزوا في فترة متأخرة من العصر الوسيط ابو القاسم علي بن حمزة البصري ،والذي اكتشف بمكتبة القرويين أوراق من تأليفه في اللغة كتبها برباط الفتح(المنوني، صفحة 61)،وغيرهم كثيرون من الذين لم تأت على ذكرهم كتب الطبقات ،ولعل أهم ماميّز البعثة الدينية الثقافية التي أوفدها الخليفة عمر بن عبد العزيز هو تجنبها الإصطباغ بالنعرة المذهبية ،فقد كانت على نهج الرسول بعيدة عن الإعتبارت المذهبية،لذا فإن إحتضانها كان كبيرا وعرفت نجاح في ايصال صوت الثقافة الإسلامية على نهج خير الأنام صلى الله عليه وسلم

والجدير بالذكر هنا أن تعاقب الدويلات الخارجية ببلاد المغرب كان له الأثر الايجابي على تعرب البربر ونشر الثقافة الاسلامية

فالدولة الرستمية والتي تزعمها عبد الرحمان بن رستم الإباضي والذي أسس دولته الرستمية سنة 140هـ،فقد لعبت هذه الدولة دورا بارز في الحياة الفكرية والتعريب بصورة عامة ببلاد المغرب الأوسط،وبرزت عاصمتها تيهرت كحاضرة علمية بإمتياز حتى سميت بعراق المغرب وبرزت كمركز إشعاع ثقافي إسلامي خلال القرن الثالث الهجري(بحاز، 1994، صفحة 263)،وكان من إفرازات ذلك رسوخ الدين الإسلامي لدى المغاربة واكتساب معالم الثقافة الإسلامية

أما الأغالبة فقد عرفت التشبع بمعالم الثقافة الإسلامية في فترة متقدمة وتحديدا مع بدايات الفتح الإسلامي(التليسي، صفحة 72) ، وهذا يرجع في الأساس الى جذور هذه الدولة العربية الخالصة وذلك لأن مؤسسها هو ابراهيم بن الاغلب سنة 184هـ/800م، وبنت قوام هذه الدولة على عصبية القبيلة الغالبة لهم وهم بنو الأغلب(غلاب، 2005، صفحة 179)،ومن منطلق أن صاحب السيف هو صاحب الدين فإن الأغالبة كان لهم دور كبير في تعريب البربر كما ساهموا بشكل واضح في نشر المذهب المالكي

أما دولة الأدارسة 174هـ/790م، ورغم غياب العنصر العربي عنها منذ مجيء طارق بن زياد الى غاية قدومهم مما خلف فراغ للعنصر العربي ولثقافته الإسلامية(الشاوش، صفحة 55)،وهو ماأكده ابن عذاري

بتأكيده أن موسى بن النصير لم يترك بالمغرب الأقصى سوى سبعة وعشرين رجلا او سبعة عشر لتعليم البربر أصول الدين واللغة العربية(المراكشي، صفحة 42)،ويبدو أن هناك مجموعة من العوامل ساعدت على تعرب هذه المنطقة منها الفترة الطويلة التي نعم فيها الأدارسة بالأمان ، ووجود جامع القرويين الذي كان قبلة للعلماء و ازدهار حاضرة فاس ،فضلاً على عدم مقاومة البربر للعرب وللغة العربية بالتحديد

أما دولة المرابطين فإن فترتها عرفت الاستقرار ببلاد المغرب ككل بعد فترة فوضى سادت بلاد المغرب،وكانت الهجرات الأندلسية باتجاه المغرب في تصاعد كبير بعد أن توطدت العلاقات التجارية والسياسية بين العدوتين ومن نتاج ذلك ان اتخذ الكثير من الأندلسيين المدن المغربية موطناً لهم، وبفعل هذا عرفت اللهجة الأندلسية طريقها الى بلاد المغرب، وكان لغة هؤلاء تعود للقبائل العربية التي استوطنت في فترة مبكرة بلاد الاندلس ،فما لبث أن عرف المغرب ثورة حضارية كبيرة أثرت في مختلف المجالات لاسيما مجالي اللغة العربية والثقافة الاسلامية(الجراري، 2013، صفحة 41)،

ومن خلال تتبع مسار الدولة المرابطية منذ نشأتها الأولى يتجلى ذلك الميول للعلم ،خاصة أن بدايتها كانت بإنشاء رباط على شكل مدرسة هدفها تعليم اللغة العربية لفهم الدين وهذا ماعملوا عليه بإخلاص(الجراري، صفحة 91)

إن نشوء الدولة المرابطية جاء في فترة صعبة جدا على بلاد المغرب الإسلامي ،والتي كان يتخبط فيها سكانها في الجهل والتخلف ومن قرائن ذلك لجوئهم إلى أبي عمران الفاسي ليبعث من يعلمهم أصول الدين ويهديهم الى الصلاح،ومن هنا يظهر أن قيام الدولة المرابطية على أساس إصلاح حال المجتمع المغربي،وفكرة الإصلاح لم تكن حكرا على مجال واحد بل شملت كل المجالات وكانت البداية بالتعليم،هذا الأخير أخذ حيزا كبيرا في مشروع هذه الدولة

وهكذا وبفضل علماء الدولة المرابطية عرفت بلاد المغرب تحولا جوهرياً من التخلف الى التفقه في الدين والتحضر، وكان هذا لا يستقيم إلا من خلال تعلم اللغة العربية ،فأفرز هذا الوضع نهضة حقيقية للغة العربية والثقافة الإسلامية تعدت حدودها وبلغت أغلب مضارب القارة الإفريقية

أما الدولة الموحدية عرفت اللغة العربية في عهدها جدال كبير على صفحات عديد المصادر، وفحوى الجدال هو ذلك الرأي القائل أن البربرية تمركزت تمركزا ينافي ماتقدم من شيوع اللغة العربية في لغة المحادثة وأعطوا عديد القرائن على هذا منها :أن الموحدون كان خطابهم في المسائل الدينية بلسان بربري، وأنهم يقرأوا التوحيد به(الجراري، صفحة 93)،وأن لايؤم القوم في أيامهم إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري

(المنوني، صفحة 154)،وكذا جاء عن المأمون بن المنصور الموحدي :أنه نعى –فيما نعاه–على المهدي بن تومرت النداء للصلاة باللغة البربرية(المنوني، صفحة 154)،كما أن ابن تومرت قام بتأليف كتاباً سماه "بالتوحيد" بلسان بربري وكتاب اخر سماه "بالإمامة" واخر سماه "بالقواعد " فضلاً على نقله لهم المواعظ والخطب ويقرب لهم المقاصد بالبربرية(المنوني، صفحة 154)

وبالمقابل فإننا نجد أن مجال انتشار البربرية كان على نطاق ضيق جدا لعدة إعتبارات منها:

- كان استعمال اللهجات البربرية في هذه الفترة مقتصرا على الجانب الديني عكس اللغة العربية التي اخذت حيزا كبيرا في التعامل التواصلي(الشاوش، صفحة 12)
- الأثر الإيجابي الكبير الذي تركته هجرة بني هلال وبني سليم للمغرب ،وكان وفودهم الى معقل الموحدين بالمغرب الأقصى بعد أن قام المنصور الموحدي بإستقدامهم حال إظهارهم له الولاء بعد قضائه على ابن غانية،فإمتزجوا وتجانسوا مع سكان بلاد المغرب ،وعرفت اللغة العربية وثقافتها في عهده انتشار كبيرا(ابنخلدون، 2001، صفحة 4)
- أباح ابن تومرت حصرياً لمن لا يفهم اللسان العربي أن يقرأ توحيد ابن تومرت بالبربرية وهم فئة قليلة تم تعريبهم بمرور الوقت
- الهجرات العكسية التي كانت من الأندلس الى بلاد المغرب والتي كانت متكونة أساساً من قبائل عربية أفرزت عن تجلي صفحة جديدة من جانب انتشار الثقافة الإسلامية،وكان نتاجه تعريب الدولة الموحدية بل وكل بلاد المغرب

وكخلاصة لهذين الرأين يمكن القول :أنّ القبائل المشكلة للدولة الموحدية هي قبائل عرفت بتعصبها الديني ،وكانت القبيلة الغالبة لهذه الدولة هي قبائل المصامدة ، وهم قبائل بربرية كبيرة ضاربة في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي

وكان الموحدون يرون وجوب تلقين أصول الدين الإسلامي لهذه القبيلة كي تضمن عصبية دينية ترافق تلك العصبية القبلية المحافظة على معالم الدولة الموحدية، ومن أجل هذا إضطر الموحدون لإستعمال البربرية لمن لا يفهم اللغة العربية (الشاوش، صفحة 155)،وهذا هو السياق الصحيح الذي يجب أن نرى فيه هذه المسالة

وصفوة القول حول انتشار اللغة العربية وثقافتها خلال العهد الموحدي،فإننا نرى أن العصر الموحدي هو فترة ذهبية لإنتشار اللغة العربية وانتشار الثقافة الإسلامية في كل المجالات ،ويظهر هذا من خلال عديد المؤشرات مثل مسألة توطين القبائل العربية بمجال الدولة الموحدية ،مما مهّد لثورة حقيقية لإرساء مسار ثقافي وإداري عربي(تويراس، صفحة 12)

4 أليات نشر الثقافة الإسلامية ببلاد المغرب

1.4. الرباط :

يجمع على ربط رابطة ورباطات ،يبدو أن المسلمين اقتبسوا هذا المصطلح من قوله تعالى"ياأيها الذين امنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون"-سورة آل عمران، الآية:200-، ويقول ابن منظور في نفس السياق الرباط والمرابطة ،ملازمة ثغر العدو ،وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله،ثم صار لزوم الثغر رباطا(ابنمنظور، دت)

والجدير بالذكر أن ماعرف عن الرباط هو مهامه العسكرية وملازمة الثغور ،لكن في الحقيقة كانت مهام الرباط تتعدى هذا ،كونه مركز إشعاع ديني يؤسس لبناء العقيدة الإسلامية الصحيحة ،فضلا على أنه لعب دورا كبيرا في نشر اللغة العربية ،وإن كانت الكثير من المصادر لا تزودنا بهذه الحقيقة ،ربما لأن ادوار الرباطات اختلفت من مكان لاخر(تويراس، صفحة 129)

والملاحظ أن أدوار الرباطات تطوّرت مع تغير الأوضاع السياسية والاقتصادية والإجتماعية لمجتمع بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ، فمع نهاية القرن الثاني الهجري أصبح الرباط مرافقا لدور المسجد في التعليم ونشر الثقافة الإسلامية(الكعاك، 1958، صفحة 16)

ومع حلول القرن (5هـ) تطور دور الرباط وأصبح يمثل إعلان لإستقلال التعليم الإفريقي بنفسه بعدما كان التعليم حكرا على المشارقة ،ثم عرفت الرباطات نقلة نوعية في مهامها فاصبحت بمثابة المدارس التي تدرس بها مختلف العلوم الدينية ،وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الأساسية لهذه المعاهد الدينية فاصبحت قبلة لكل طلبة العلم من كل انحاء بلاد المغرب والتشبع بمقومات الثقافة الاسلامية

وبهذا تدعمت الوظيفة الموكلة للرباط والمتمثلة أساساً في الوظيفة الحربية إلى وظيفة جديدة وهي تحول الرباط إلى مركز اشعاع ديني وتعليمي وثقافي هدفه ترسيخ الإسلام في نفوس المغاربة ونشر اللغة

العربية وثقافتها الإسلامية ومن خلال انتشار الكثير من الأربطة مثل (رباط شاكر،ورباط أكوز،ورباط ماسة ،ورباط تيطنفطر ،ورباط أكلو ،ورباط القاسم بن إدريس ،ورباط أصيلا)(تويراس، الصفحات 123-124-125-126-129-132) ،يظهر لنا شغف المغاربة للإطلاع على الثقافة الإسلامية وتعلقهم باللغة العربية

ومن خلال هذا تتجلى أهمية الرباط في تحقيق التقاليد العلمية مما أدى الى الإكتفاء الذاتي العلمي كما ذهب إليه المؤرخ عثمان الكعاك(الكعاك، صفحة 21)

2.4. المساجد والكتاتيب :

المسجد في اللغة هو البيت الذي يسجد فيه ،قال الزجاج : كل موضع نتعبد فيه هو مسجد(التليسي، صفحة 386)، كما يعتبر المسلمين المساجد من أكثر المؤسسات التعليمية وأهم مركزا لنشر الثقافة الإسلامية ،فكان بمثابة الثانوية والجامعة(التليسي، صفحة 386)، ولهذا بدأ فيها ممارسة نشاط التعليم منذ القرن الأول الهجري(أسكان، 2004، صفحة 58)

وإن أردنا معرفة تاريخ بناء المساجد الأولى ببلاد المغرب سنجد صعوبات كثيرة بسبب قلة المعلومات التاريخية، ولتأخر كتابة المصادر التي تناولتها،فضلا عن تضارب رواياتها(المراكشي، صفحة 27)

والملاحظ أن منذ بناء عقبة المسجد الجامع بالقيروان ،إقتدت به القبائل البربرية وسارعوا الى بناء مساجد أخرى بمضاربهم مثل ماسة و درعة ..وغيرها (ربوح، صفحة 65)

لذلك يمكن القول أن المساجد وضعت كنواة للإستقرار الإسلامي ببلاد المغرب ،لاسيما بعد بناء مدينة القيروان ،وجامعها الكبير الذي أصبح منارة ثقافية مشهورة ببلاد المغرب (التليسي، صفحة 61)

يعتبر المسجد أهم مركز لنشر الإسلام والدعوة إليه ،وإن كان المسلمون يعتبرونه بيت لله مخصّص للتقرب منه من خلال أداء الصلاة إلا أن الواقع يثبت أن المسجد دوره يتجاوز هذا على مدار العصور الوسطى والى غاية وقتنا هذا

فالمسجد يعتبر مركز إشعاع علمي وحضاري يجمع بين كل ماهو ديني وثقافي وتربوي وتعلمي في الوقت نفسه

ومن أجل هذا قام جل الصحابة والتابعين ببناء المساجد التي كانت دورا للعبادة والثقافة في ان واحد(التليسي، صفحة 61)

والملاحظ أنه كلما يبنى مسجد إلا وتبنى معه لواحقه وأهمها الكتاتيب كمؤسسات تعليمية كانت مخصصة في الأساس الى تعليم الأطفال الصغار مبادء القراءة والكتابة وتعلم اللغة ،بالإضافة الى تحفيظ القران الكريم ،وكانت هذه الكتاتيب على شكل معاهد صغيرة ملحقة بالمساجد وقد وضعت هذه المعاهد إما من طرف الدولة أو بجهود العامة، وقفوها لتعليم أبناء المسلمين كما فعل المستنصر الخليفة الأموي(ربوح، صفحة 65)

وبالرجوع الى الإطار الزماني الذي عرف بدايات انتشار ظاهرة الكتاتيب فهو في وقت مبكر وتحديدا في القرن الأول الهجري ،وكانت غاية البربر على مايبدو أن يتعلموا كل ماهو متعلق باللغة العربية والدين الإسلامي وأن يتفقهوا فيه حتى تفوقوا على العرب أنفسهم في الكثير من الأحيان(ربوح، صفحة 62)

وفي الحقيقة أن البربر كانوا شديدي الحماس لتعلم الثقافة الإسلامية ولغتها ،رغم أنهم كانوا في هذه المرحلة حديثي العهد بالإسلام ولم يتقنوا حتى اللغة العربية مما يعطي صورة على ذلك الدور الكبير الذي كانت المساجد تضطلع به من خلال تبسيط القواعد اللغوية و الدينية، وكانت القدوة بمسجد عقبة بن نافع في القيروان(التليسي، صفحة 70).

5 خاتمة:

انتشرت اللغة العربية ببلاد المغرب بالموازة مع انتشار تعاليم الإسلام منذ القرن الأول للهجرة ،وكان ذلك عن طريق عديد القنوات وخلال حقب متعاقبة ،وأقبل الأمازيغ على تعلم اللغة العربية بموازاة إقبالهم على الدين الإسلامي ،وذلك للتمكن من فهمه وكتابته والتفقه فيه ، وبالتدريج إستقرت اللغة العربية في مدوناتهم وثقافتهم مما إنعكس على إنتعاش الثقافة الإسلامية ككل ،حيث بلغت هذه الأخيرة مع توالي القرون ازدهارا عكس طابعها الخاص وقدرتها على استيعاب ذهنيات سكان بلاد المغرب فأصبحت اللغة العربية بذلك لغة محلية لها ملامحها وخصائصها التي تعايشت مع اللسان البربري

والحقيقة أنه تظافرت عدة عوامل ساعدت على الإهتمام باللغة العربية وتحسين أوضاعها لدى المغاربة منها :

- عدم مقاومة البربر للغة العربية وعدم إعتبارها لغة مستعمر بل إعتبروها لغة فاتحين
- العاطفة الدينية التي يبديها البربر للإسلام وحماسهم لتقبله ونشره بينهم،وربطوا مسألة اللغة العربية بقداسة الإسلام

- الإنخراط التلقائي في الثقافة الإسلامية ثم التفوق فيه وبروز مثقفين وأدباء من البربر زاحموا العرب في النبوغ
- حاجة البربر لإستعمال لغة سلسة من أجل إستعمالها في التحصيل العلمي والتواصل والإدارة وهو ماوجدوه في اللغة العربية

6 قائمة المراجع:

1. ابنخلدون ,ع .ا .(2001) .*ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر ،تح :خليل شحادة، ج.6* بيروت :دار الفكر .
2. ابنمنظور) .دت .(*لسان العرب، ج3، -مادة الرباط والمرابطة*.- بيروت :،دار صادر ،ط2،.
3. أبوالعرب .(1985) .*طبقات علماء إفريقية وتونس ،تح :علي الشابي ونعيمة حسن اليافي*.الجزائر :الدار الوطنية للنشر ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،ط.2
4. أسكان ,ا .(2004) .*تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط ،مركز الدراسات التاريخية والبيئية*.الرباط ،المغرب :المعهد الملكي للثقافة الامازيغية ،مطبعة المعارف الجديدة .
5. اسماعيل ,ع .ا .(1985) .*الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع هجري*.الدار البيضاء، المغرب :دار الثقافة، ط.2
6. أفا ,ع .(1993) .ملامح من تطور الخط المغربي من خلال الكتابة على النقود .*مجلة كلية الاداب*.(18)
7. أفا ,ع& .,المغراوي ,م .(2007) .*الخط المغربي تاريخ وواقع وافاق*،.الدار البضاء :منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ،مطبعة النجاح الجديدة،ط.1
8. التليسي ,ب .ر) .دت .(*الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الاسلامي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي*.دار المدار الاسلامي.

9. الجراري ,ع .(2013) .*الزجل في المغرب –القصيدة*.–الرباط ،المغرب :مطبعة الامنية.

10. الشاوش ,و .(2010) .*تاريخ تعريب المغرب الاقصى* .مطبعة الألولة.

11. الكتاني ,ي) .دت .(*مدرسة الامام البخاري في المغرب، ج .1* بيروت :دار لسان العرب.

12. الكعاك ,ع .(1958) .*محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر*.القاهرة ،مصر :معهد الدراسات العربية العالمية .

13. المالكي ,أ .ع .(1995) .*رياض النفوس، تح :حسين مؤنس،ج.1* القاهرة، ط .1

14. المراكشي ,ا .ع .(1980) .*البيان المغرب في أخبار لأندلس والمغرب،تح:ليفي بروفنسال* ،ج،س،*كولان، ج.1* بيروت :دار الثقافة، ط. 2

15. المنوني ,م .(1988) .*العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين*.،الرباط :،مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر ،ط.2

16. النعمان ,أ .ب .(1998) .*كيف صار الجزائر مسلمة*.الجزائر :دار الائمة للطباعة والنشر ، ط.2

17. بحاز ,ا .(1994) .*الدولة الرستمية 160-296)هـ777-909/م(،دراسة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية*.الجزائر :جمعية التراث.

18. بوسعد ,ا .(2002) .*الحياة العلمية والثقافية في الإمارة الاغلبية وعلاقتها بالخلافة العباسية 184/296)هـ(، رسالة ماجيستير،جامعة الجزائر.*

19. تويراس ,ر .(2015) .*تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي*.مؤسسة الأدريسي الفكرية للابحاث والدراسات، ط.1

20. حركات ,ا) .دت .(*المغرب عبر التاريخ، ج.1* الجزائر :دار الرشاد الحديثة .

21. ربوح ,ع .ا .(25 06 ,2013) .حركة التعريب وأثرها في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط .*مجلة أنسنة للبحوث والدراسات*.(7)

22. سعد ,ز) .دت .(*تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية الاستقلال*.مصر :منشأ المعارف.

23. سواعدي ,ع& .,الحاج ,ص . ع .(2004) .*دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي*.القاهرة : المكتب المصري للمطبوعات ، ط.1

24. شاكر ,م .ا .(2010) .*حتى القرن السادس هجري*.مراكش :مؤسسة افاق للدراسات والنشرو الإتصال ،ط.1

25. غلاب ,ع .ا .(2005) .*قراءة جديدة في تاريخ المغرب، ج. 1* دار الغرب الاسلامي .

26. كنون ,ع) .دت .(*النبوغ المغربي في الادب العربي* .الشركة العالمية للكتاب.